فاعليّة المؤتمرات الثقافيّة العربيّة

يخصص لبند الثقافة أقل ميزانية ممكنة ضمن الموازنة العامة للدولة في البلاد العربية، لكون الثقافة نوعاً من النشاط الخدمي الترفي الهامشي، يأتي في نهاية جدول الخدمات التي يجب أن تقدمها الدولة إلى مواطنيها، وهي الخدمات التي تقف على رأسها الخدمة الأمنية أولاً ثم خدمات الدفاع والتعليم والصحة...إلخ.

ورغم الارتفاع الهائل في نسبة الأمية، والتدني الواضح لمستوى التعليم من الناحية الكيفية، فإن البلدان العربية تشهد نشاطاً ثقافياً محموماً، يختزل عادة في مؤتمرات وندوات ومهرجانات ثقافية. وهذه التظاهرات، تلتهم وتسيطر على معظم الميزانيات الثقافية المحدودة والضئيلة أصلاً، وتأتي على حساب الأنشطة الثقافية الأخرى، كنشر الكتب، والتمويل السينمائي والمسرحي، وتدعيم الفنون التشكيلية...إلخ، وحتى الاهتمام بهذه الأنشطة الثقافية المتباينة، إن تم، فإنما يتم في إطار مهرجانات، ومؤتمرات، وندوات، على الأغلب.

وفي مدينة القاهرة وحدها، يعقد ما لا يقل عن ثلاثة، أو أربعة ملتقيات شهرياً، على مدار السنة (الإحصائية الرسمية للأمية في مصر ٧٠ في المئة)، أما في بيروت، رغم سنوات الحرب الدامية الممتدة، فإن المؤتمرات فيها لا تنتهي؛ والعاصمة التونسية تشهد بهجة مؤتمراتية على مدى الأيام، وخصوصاً خلال فصل الصيف، حيث تختلط الثقافة بالسياحة، وربما لو جرى نوع من الرصد الكمي لما يعقد من مؤتمرات في عالمنا العربي، لتوصلنا إلى نتائج هزلية مذهلة، من نوع: مؤتمر لكل مواطن، أو ندوة لكل خمسة مواطنين أو مهرجان لكل عشرة[1].

وتتضح هذه الظاهرة، بينما يعاني الكتاب الثقافي ركوداً مريعاً، يعود في جانب منه إلى ارتفاع التكلفة،

(١) لكثرة المؤتمرات والمهرجانات التي تعقد في البلاد العربية، استدعى الأمر إنشاء هيئة مستقلة للتنسيق بين المؤتمرات العربية، حتى لا يحدث تضارب في التوقيت بينها.

سلوى بكر

الأمـر الذي يؤدي إلى زيادة سعـره بمـا لا يتناسب ودخل معـظم الناس. كمـا أن أهم الآثار في المنطقة تتعرض للـتآكل والضياع، بسبب عدم وجود مـيزانيات للحفاظ عليها، كـما يقل الإقبال على السـينما والمـسرح بسبب غـلاء سعـر البطاقات، الأمـر الذي يقلل الدور الإنتاجي لـهذين القطاعين المـهمين في الثقافـة. وعموماً فإن مـجمل خريطة الثقـافة، توضح ذلك التناقض بين الاهتمام بالمؤتمرات وبقية الأنشطة الثقافية الأخرى.

هل من ضرورة؟

إن أي نشاط ثـقافي يجب طرحـه ضمن سـياق مشـروع ثقافي عـام يرتبط به ويعبـر عنه، والملاحظ غياب ذلك المـشروع الثقافي المرتبط بمشروع كلي على مـستوى الدولة، له تجلياته السياسـية والاقتصـادية والاجتماعـية، وبالتالي تصبح الثـقافة ضرورة تلبي حـاجات، ضمن محاولة المشروع تلبيـة الحاجات المجتمعية الأخرى، لذلك فإن غيـاب المشروع الثقافي العام، يفرز سؤالاً جدياً يتـعلق بجدوى المؤتمرات ومدى فاعليتـها، ويلفت النظر إلى دوره في تمرير سيـاسات ثقافـية بعينهـا، قد تخدم مـشروعات ثقـافية أخرى لا تـعبر عنا، ولا تلبي حـاجاتنا المجتمعية أولاً.

مؤتمراتنا أولاً

كل عام، وعلى امتداد خريطة العالم العربي، تعقد مؤتمرات محلية على مستوى البلد الواحد، أو مؤتمرات عربية يشـارك فيها أساتذة من بلدان عربية متبـاينة، والملاحظ أن هذه المؤتمرات تعقـد وتنفض، وتتمخض عن توصيـات وقرارات، سرعـان ما تتبخـر في الهواء، أو تطبع على أوراق (للذكـرى)، ويعبـر ذلك عن مدى الانفـصال الكامل بيـن هذه المؤتمـرات وبين السلطات التنفيذية للثقـافة في الدولة/الدول المشاركة في هذه المؤتمرات، وهذه مسـألة تعود إلى غياب المشروع الثقافي أيضاً، فالمشروع يحتـاج إلى سلطة تنفيذية، والسلطة التنفيذية ليست بحاجة إلى مشروع، وقد يـفسر ذلك طبيعة المـؤتمرات الثقافية وماهيـتها عادة، فالعناوين المـقترحة للمؤتمرات، والإشكاليات المتمحورة حولها، تأتي غـالباً فضفاضة، هلامية، لا تعبر عن ضرورة واضحـة محـددة، ولنأخذ عـلى سبيـل المثـال بعض العناوين لمؤتمـرات عقـدت في السنوات الأخيـرة: «الرواية: الماضي، الحـاضر، المـستـقبل»[٢]، «المـسرح والتجـريب»[٣]، «المـسرح اللبناني: مشاكل وآفاق»، «زكـي مبارك وتعليم المرأة»[٤]. وهذه العناوين، التي جرى اخـتيارها عشوائياً من بين عشرات العناوين الأخرى المـشابهة، تعني وتفصح صراحة عن أنه يمكن قول أي كلام تحتـها، وأن الدراسات والبحوث المـقترحة لها هي خـارج سياقات ثقافـية مجتمـعية مرهونة بزمان ومكان محددين، بأنها عناوين مؤتمرات وندوات اللاضرورة، وهذا ما تؤول إليه عادة إذ إنهـا تتمخض في أفـضل الأحوال عن كتاب تُجـمع مادته من أوارق المؤتمـر، ولا يقرأه عادة إلا قلة محدودة قد تكون متخصصة، وقد تكون متلصصة، ترغب فقط في مراقبة ما يدور.

(٢) مؤتمر عقد في القاهرة منذ سنوات عدة.
(٣) عنوان مهرجان القاهرة المسرحي في سنة ١٩٩٥.
(٤) ندوة عقدت في المجلس الأعلى للثقافة: «زكي مبارك وتعليم المرأة».

وتتزايد في الآونة الأخيرة الندوات الاحتفائية، التكريمية، المتمحورة حول أعلام عاشوا في الماضي، أو أعلام ما زالوا في قيد الحياة، وهذه الندوات/المؤتمرات، تكون عادة أشبه بالموالد منها بحلقات بحث علمية جادة، وهي تتمخض عادة عن نتائج تؤكد أنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، أما عن الحاضر، وعلاقة ذلك الماضي به فلا شيء يُذكر، وهذه الندوات تتعامل مع هؤلاء الأعلام عادة من منظار متحفي، تحنيطي، قداسي في بعض الأحيان، يغيب عنه كل ما هو حيوي وفاعل يمكن التعامل معه والإفادة منه. وفي هذه المؤتمرات والندوات، تتكرر الأسماء المشاركة دائماً وعلى مدى سنوات طويلة. وعلى سبيل المثال وليس الحصر شارك كاتب روائي في نحو تسعين في المئة من المؤتمرات الثقافية التي أقيمت في القاهرة، منها مؤتمر عن الشعر، وندوة عن التراث، وندوة عن ثقافة المرأة، وندوة عن الشعر الشعبي. ولعلنا ندرك أي عبقري بحاثة هذا، وأي مثقف موسوعي عميق هو، يتنقل كفراشة هائمة بين دروب وفروع التخصصات الأدبية والثقافية المتباينة، كما نستطيع أن ندرك نوع الأوراق التي عبرت عن مساهماته في كل هذا ومدى عمقها وجديتها[٥].

من زاوية الوقت، يُدهش المرء، عندما يكتشف تلك الأسماء المتكررة المشاركة في المؤتمرات والندوات على مدار السنة، ويقف متسائلاً، كيف يجد هؤلاء الوقت للمشاركة في كل هذا[٦]، وكيف يسوِّدون الصفحات بكل هذا الكلام الذي يقولونه، وبمناسبة الوقت فإن هذه المؤتمرات تبدو أحياناً نوعاً من تضييع الوقت، أنها تمارس اللعبة، كفريق كرة القدم المنتصر قرب نهاية الجولة الأخيرة، فهي تضيع الوقت بتجاهل الأسئلة الأهم في الحياة الثقافية، والأسئلة الأكثر إلحاحاً في اللحظة التاريخية الراهنة، حيث تتهددنا جميعاً كأمم/أمة أخطار عديدة، بتنا نعانيها معاناة يومية لصيقة، والسؤال عن الثقافة والحرية، الثقافة والتعليم، الثقافة والفقر، الثقافة والهوية الوطنية، هو سؤال غائب، ضائع، مبعد من هذه المؤتمرات، التي باتت تشتهي السؤال عن الثقافة والجسد، أو الكتابة الأنثوية، إلى آخر كل هذه العناوين الطافية على السطح في الحياة الثقافية[٧].

موضة الشهادات

ومن الاختراعات السائدة بنجاح عظيم في المؤتمرات الآن ظاهرة الشهادات، وهي ظاهرة تعكس وتؤكد طبيعة الدور الذي تقوم به هذه المؤتمرات أيضاً، ففي الأصل، تكون الشهادة التي يدلي بها مفكر أو أديب أو مثقف كبير، نوعاً من الإفصاح عن التجربة المتميزة الخاصة لصاحبها، يتوسل بها للإفادة والمعرفة والنفع للآخرين، إنها ثبت منطوق/مكتوب عن صيرورة وتحولات تلك التجربة الخاصة لمن يدلي بها، ولعل ذلك يستدعي أن يكون لصاحب الشهادة باع له قيمته ومتفق عليه في مجاله، كما يكون من الأدعى أن تأتي ممن راكم إنتاجاً ملموساً يعتد به. لكن الملاحظ أن الشهادات باتت من نصيب كل من هب ودب، وكل من كتب أي شيء، ويكفي أن يكتب المرء قصة هنا، أو قصيدة هناك حتى يستدعى للشهادة، وفي مؤتمر أخير عقد في

(٥) إن هذا المثل متكرر دائماً وليس فريداً، وهو منتشر على امتداد الخارطة العربية.

(٦) تنشر الأوراق والأبحاث المقدمة عادة في أكثر من صحيفة او مجلة ثم يعاد طبعها في كتاب مرة أخرى.

(٧) «الحداثة»، «الثقافة والجسد»، «الكتابة الانثوية»، عناوين كرست لها باشكال مختلفة مؤتمرات عدة منذ بداية التسعينات في مصر ولبنان والمغرب وتونس. والكتابة الانثوية وحدها شهدت منذ بداية التسعينات مؤتمراً في فاس ومؤتمراً في لبنان، واربعة مؤتمرات في مصر.

القاهرة عن إبداع المرأة أدلت نحو عشر كاتبات بشهادتهن، وقد تكرر ذلك في مؤتمر مماثل بعد ذلك بنحو شهرين[٨].

طباخ السم

وعلى طريقة «طباخ السم لا بد من أن يتذوقه»، فإن المنظمين لهذه المؤتمرات والندوات هم عادة المتحدثون فيها، وهكذا تكيف عناوين وموضوعات المؤتمرات، وفقاً لأهواء هؤلاء ورغباتهم، وفي أفضل الأحوال لتخصصاتهم، وبالتالي تكون الأبحاث/الأوراق المقدمة فيها، إما قديمة سبق إلقاؤها في ندوات أخرى سابقة، أو أجزاء من أوراق سابقة، أو أوراقاً أعدت للقراءة في مؤتمرات أكثر بريقاً ولمعاناً في العالم الخارجي، وهكذا يستطيع صاحب الورقة أن يضرب عصافير عدة بحجر.

والظاهرة اللافتة أن المنظمين للمؤتمرات على مستوى بلد ما يوجهون الدعوة إلى نظرائهم من المنظمين على مستوى البلد الآخر، وعلى طريقة «شيلني وأشيلك»، فدعوة الآخرين، تعني أن هؤلاء سيدعون الأولين إن شاء الله، عندما توافيهم الفرصة ويعقدون مؤتمرات في بلدهم.

وعلى سبيل المثال أيضاً فمنذ انعقاد معرض القاهرة الدولي للكتاب منذ نحو سبعة وعشرين عاماً، شاركت في ندوات ذلك المعرض الضخم أسماء ووجوه تكررت عاماً تلو آخر طوال هذا الزمن الطويل، ولنتخيل أي بؤس يعانيه مواطن مسكين متعطش إلى الثقافة، زار هذا المعرض، وظل يستمع إلى الكلام نفسه ويرى الأشخاص أنفسهم طوال هذه الفترة[٩].

عرب أوروبا والمؤتمرات

أما سعداء الحظ، عرب أوروبا من المثقفين والمبدعين، فهم أصحاب الخطوة الأولى في هذه المؤتمرات، فلأنهم يعيشون في الجنة المنشودة، ونحن نعيش في الجحيم المقيم، ولأن بعضهم صاحب يد طولى في الدعوة إلى مؤتمرات الجنة فهم دائماً على رأس أي دعوة إلى مؤتمر في المنطقة العربية، بصرف النظر عن القيمة الفكرية المحدودة لبعضهم، وبصرف النظر أيضاً عن الضرورة الملحة إلى مشاركتهم، والجدوى الثقافية الناجمة عن حضورهم.

باختصار هناك لوبي مؤتمرات مصلحجي، أطرافه تمتد من المشرق العربي وحتى نهاية المغرب العربي، وتمتد علاقاته ما وراء البحار، وهو يكرس أعضاءه دائماً، ويحجب أي فعاليات أخرى قد تكون مؤثرة وفاعلة وذات قيمة.

العالم الثالث الغائب

نادراً ما يظهر مثقفو العالم الثالث على خارطة المؤتمرات العربية، بل عادة يفضل استدعاء باحثين أو مثقفين من الغرب للمشاركة في الندوات والمؤتمرات العربية. بالطبع يؤدي الارتباط

(٨) أدلت كاتبات بشهادات في ندوة «المرأة والكتابة» التي عقدت بمناسبة يوم المرأة العالمي في آذار/مارس ١٩٩٥، وعدد من الكاتبات ذاتهن أدلين بالشهادات نفسها في معرض نور لكتاب المرأة سنة ١٩٩٥.

(٩) لقد جرى تكريس الأسماء وتكرارها في معرض القاهرة للكتاب إلى الحد الذي كان يذهب فيه بعض الكتاب إلى أماكن عقد ندواتهم فلا يجدون أي جمهور فتلغى الندوة.

بالغرب، وطبيعة العلاقة الثقافية، دوراً أساسياً في ذلك، لكن أليس غياب المشروع الثقافي الخاص بنا ركيزة في تفسير هذه الظاهرة أيضاً؟ وأليس غياب الدور المحدد للمؤتمر، إجابة عن ذلك التساؤل أيضاً؟ إن العالم الثالث يعج بمفكرين ومثقفين لهم قيمتهم العالية، بل هم في كثير من الأحيان قادرون على تلبية أسئلة ثقافية تتعلق بنا، نظراً إلى تقارب طبيعة ظروفهم الثقافية وتشابهها مع ظروفنا، والطريف في الأمر أن مشاركة هؤلاء ثقافياً تحدث أحياناً بعدما يكون قد جرى تكريسهم في الغرب أو تم التنويه بهم هناك.

المؤتمرات الثقافية والفساد العام

لا تبعد المؤتمرات الثقافية كثيراً من حالة الفساد العام التي يعيشها معظم البلدان العربية، فهذه المؤتمرات تكون فرصة لا بأس بها لهدر وسرقة جانب من المال العام تحت بنود المؤتمرات المتباينة (حجز فنادق وقاعات، تمويل استقبالات، مطبوعات...إلخ). وتقف وراء كل مؤتمر عصابة منظمة من الموظفين والإداريين ومتخصصي بيروقراطية، هم المستفيد الأول من هذه المؤتمرات، وهم يكونون في العادة، أبعد الناس من الثقافة والاهتمام بها، بل والمعادين رقم ١ لها في المجتمع.

التمويل الخارجي

في الآونة الأخيرة، ظهرت مسألة التمويل الخارجي للمؤتمرات الثقافية، وهذا التمويل يأتي عادة من مجموعة مؤسسات غربية معنية بالعمل العام في العالم الثالث، وتبدو أول وهلة كأن هذه الجهات الممولة حسنة النية، ليس لها أي غرض محدد يقف وراء ذلك التمويل، الذي ما هو إلا لوجه الله. ولكن طبيعة المؤتمرات الممولة، وكمية الأموال المتدفقة عليها تصيب المرء بالدهشة وتجعله يتوقف ليتساءل عن الهدف الحقيقي من ذلك التمويل وعن الدور الحقيقي لمثل هذه المؤتمرات والندوات، التي تبدو عادة متخصصة جداً، وبحثية تماماً، ولا علاقة لها بما يدور خارج جدران قاعاتها من أحداث مهما كانت. وخلال مؤتمرات عدة حضرتها كاتبة هذه الورقة بوجه أو بآخر، وهي ندوات أو مؤتمرات شارك فيها كم لا بأس به من مثقفين مرموقين ومفكرين ومبدعين يعتد بهم ولهم وزنهم في خارطة الثقافة، لم يخرج المؤتمر بتوصية واحدة، أو يصدر بياناً يعبر عن قلقه أو اهتمامه بما يدور في مجتمعاتنا أو العالم من أحداث مأساوية جسيمة، بل إن مطالبة البعض وإن جرت على استحياء تبدو غير مقبولة ومرفوضة تماماً.

إن عزل المثقف العربي عن واقعه وما جريات الأمور فيه، تبدو واضحة من خلال هذه المؤتمرات، التي تبدو عادة بريئة جداً ومتخصصة جداً وعلمية جداً، ويظل شعار رفض الايديولوجيا في العلم هو الشعار السائد فيها، لذر الرماد في العيون وإخفاء كل أدلّة حقيقية تجري على قدم وساق من خلال هذه المؤتمرات.

مؤتمرات الغرب

تعقد مؤتمرات الغرب في ظل سياسة ثقافية مرسومة بدقة، تخدم سياسات عامة محددة ذات طابع تكتيكي واستراتيجي، وموضوع الندوات الثقافية الغربية التي يساهم فيها مثقفون

من العالم العربي أو العالم الثالث، هو إشكالية تحتاج إلى مبحث خاص، ولكن يمكن القول إن مساهمة هؤلاء المثقفين هناك تلقي بظلالها في كثير من الأحيان على طبيعة مؤتمراتنا الثقافية.

إن استدعاء مثقفين من العالم الثالث إلى الغرب للمساهمة في مؤتمرات وندوات تكرس لموضوعات محددة، بات الوسيلة المثلى للوصول إلى المعلومات عن هذا العالم، انطلاقاً من أن المعلومات هي الثروة الحقيقية التي تحدد مدى غنى الدول وليس التقانة، وفي السباق المحموم على المعلومات، تعقد المؤتمرات ويدعى إليها زبدة المثقفين العرب ليدلوا بدلوهم ويقدموا على طبق من فضة أهم ما لدى «الآخر»، الذي يسعى الغرب بجد وبسرعة لمعرفته.

بعض هذه المؤتمرات والندوات، يكرس خصيصاً لعالمنا العربي، ولمناقشة مسائل ثقافية ساخنة جداً، وآنية جداً تدور فيه ونظراً إلى المناخ العام اللاديمقراطي، وحالة غياب حرية التعبير السائدة، فإن التحمس للفضفضة في الغرب والكلام على همومنا يتم ربما على نحو لا شعوري أحياناً وإذا ما افترضنا حسن النية، وعموماً فإن ندوات الغرب وبكل ما فيها من إغراءات تعكس أحياناً حالة من الهروب الثقافي، وعدم القدرة على مواجهة ما يدور على أرضنا.

الثقافة والناس

تعقد المؤتمرات عادة في العواصم والمدن الكبرى، وداخل أماكن راقية معزولة كالفنادق والأندية الكبرى، والقاعات الفاخرة، وأماكن أخرى عديدة لا يؤمها الناس العاديون، بل ربما يرهبون دخولها أيضاً. إن هذه الفكرة «المكانية» عن المؤتمر وبدعوى ضرورة توافر شروط خدمية لعقد أي مؤتمر، تعكس طبيعة عزل الثقافة عن الناس، وتحويلها شيئاً فشيئاً إلى موضوع نخبوي كهنوتي في النهاية، هو فوق المجتمع ولا يتعاطى مع هذا المجتمع. إن هذه الحجج المكانية، يمكن النظر إليها من منظار آخر، إذا ما كانت الثقافة ضرورة مجتمعية لدينا، إذ إن تحسين شروط المكان، ليلبي حاجة الاجتماع/المؤتمر، يصبح في هذه الحالة ضرورة لا بد منها. ورغم أن دلالة المكان بالمعنى الرمزي تظل غائبة دائماً عن مؤتمراتنا فإنه يمكن قراءة دلالة المكان من زاوية أخرى معاكسة. فمثلاً تحت شعار ثقافة البحر المتوسط، وهو الشعار الأكثر سيادة الآن، لأسباب سياسية تستهدف دمج إسرائيل ضمن ثقافة المنطقة وإبهات الهوية الثقافية العربية يمكن أن تعقد ندوة في تونس يلتقي فيها مثقفون متوسطيون بينهم عرب وإسرائيليون، ويكون اختيار الموقع رمزياً هنا ذا دلالة لا يمكن إخفاؤها[١٠].

ولعله في النهاية، يتوجب عليّ الإشارة إلى أن ما قمت بعرضه ما هو إلا مجموعة ملاحظات تحتاج إلى الكثير من التوثيق والإثبات وإن كانت تجلياتها جلية ظاهرة للعيان في حياتنا الثقافية، ولكن المشكلة في أن المادة البحثية حول هذا الموضوع كثيرة ومتراكمة وتحتاج إلى أجهزة عديدة تتعاون في الحصول على المعلومات، وتستطيع مد الباحث بها.

(١٠) مثال ذلك الندوة التي عقدت في العام المنصرم وشارك فيها مثقفون عرب وإسرائيليون، ومعظم العرب من الأسماء الثقافية المرموقة.